



الغرب والشرق أو لعبة المرايا المتناظرة على ضوء الكتابات الفكرية العربية المعاصرة

The West and the East, or the Game of Symmetrical Mirrors in Light of Contemporary Arab Intellectual Writings

لونيس بن علي*

جامعة عبد الرحمان ميرة، بجاية- الجزائر lounis.benali@univ-bejaia.dz

تاريخ النشر:
2025-06-03

تاريخ القبول:
2025-05-30

تاريخ الإرسال:
2025-02-24

ملخص: سنحاول أن ننطلق في بناء رؤيتنا لموضوع هذا البحث من القاعدة التالية، وهي أن أي حديث عن الهويات العملاقة *Méga – identité* ونقصد بها: الشرق والغرب لا يخلو من الصعوبات والمزالق، والسبب يرجع إلى تعرض المقولتين للاستفراغ المعرفي، وتحولهما إلى مقولتين أيديولوجيتين، تم استعملهما في إطار ما يُطلق عليه في الأدبيات السياسية بـ صراع الحضارات، وتقاتل الهويات. وقد توصلنا، بعد قراءة عدد من المؤلفات الفكرية العربية إلى أن الآليات التي اعتمد عليها الغرب في إنتاج رؤيته الاختزالية عن الشرق هي إلى حد ما نفس الآليات التي وظفها الشرق في بناء تصوراتهِ عن الغرب المسيحي واليهودي.

كلمات مفتاحية: شرق؛ غرب؛ استعمار؛ الآخر.

Abstract: We will attempt to start building our vision for this research topic from the following premise: any discussion about the mega-identities—namely, the East and the West—is fraught with difficulties and pitfalls. This is due to the fact that both concepts have undergone a process of intellectual exhaustion, transforming into ideological constructs that have been utilized within the framework referred to in political literature as the clash of civilizations and the struggle of identities. After reading a number of Arab intellectual works, we have come to the conclusion that the mechanisms that the West relied on in producing its reductionist view of the East are

* المؤلف المرسل

to some extent the same mechanisms that the East employed in constructing its perceptions of the Christian and Jewish West

Keywords: East; West ; Colonialism ; The Other.

1-مقدمة: عندما امّحت الحدود بين المعرفي والأيديولوجي في النقاش العام حول علاقة الشرق بالغرب، وعلاقة الغرب بالشرق، لم يعد ممكناً إرساء قاعدة متينة لتأطير النقاش والخروج به إلى برّ الأمان، بعد أن تعرّضت هذه المقولات التي يمكن أن نضيف إليها مقولات أخرى مثل: الإسلام وأوروبا... إلخ إلى أدلجة مهوسة بتعبير المفكر "محمد أركون"، ممّا يتوجّب إعادة التفكير فيها، لأجل استعادة صورتها التاريخية، والقضاء على صورتها الأيديولوجية.

لقد تعرّضت العلاقة بين الشرق والغرب إلى استعمالات أيديولوجية مكثفة، جعلتهما عرضة لإساءة فهم متبادلة، الأمر الذي خلق مناخاً عاماً اتسم بالتوجس والحذر والإحساس بالتهديد والهوس بإقصاء الآخر، واختزاله، وتنميته، والحد من قيمته، وتشويه حقيقته. بل امتد الأمر إلى قيام كلّ طرف باختلاق الطرف الآخر. والنتيجة، كما قال أركون، هي أنّ ((الصورة المتبادلة بينهما، أي التي يمتلكها كلّ طرف عن الطرف الآخر غير صحيحة على الإطلاق))¹

وبالعودة إلى الخطاب الإعلامي اليوم، فقد نجحت القوى الإعلامية في تثبيت هذه العلاقة وتكليسها على النحو الذي يجعلها اليوم علاقة ذات طبيعة سرمدية وجوهرائية، لا تقبل أي تفسير آخر خارج أفق الصراع؛ مما حوّل "الغريبة" و"الآخية" إلى مرادفات للخطر والتهديد والجحيم بتعبير جان بول سارتر، الذي قال بأنّ الآخر هو الجحيم.

تأكدت هذه الفلسفة أكثر، بعد أحداث أيلول 2001، والتي لم تنتشع سحبها السوداء إلى اليوم، بل جذّرت أكثر فكرة صراع الحضارات، ورسّخت في المخيال الغربي صورة الشرق - الإسلامي الذي صار يهدد وجود هذا الغرب في عُقر داره، وليست الأحداث في ذاتها واختيار برجي التجارة العالمية لتنفيذ تلك العمليات الاستعراضية، على الرغم من اللبس الذي مازال يحوم بها إلى اليوم، إلّا عتبة لتفريغ الشرق من بعده الإنساني، وجعله ذلك الغول المُلتحي، المدمج بالحد، والمتعش إلى دماء الغربيين، الذي يقتل باسم الإله الإسلامي، لإقامة شريعته فوق الأرض.

وفي سبيل توسيع النقاش حول فكرة علاقة الغرب بالشرق، سنحاول أن ننظر إلى هذه العلاقة من زاوية أخرى، أي علاقة الشرق بالغرب، من خلال التساؤل التالي: هل كانت علاقة الشرق بالغرب علاقة الضحية بالجلاد في المُطلق؟ ألم يَقم الشرق، هو الآخر، على صناعة الغرب وتمثيله وتتميطه وفق الآليات نفسها التي انتهجها الغرب في تمثيله للشرق؟ وإلى أي مدى يمكن تجاوز حالة إساءة الفهم المتبادلة بين الهويتين الكبيرتين؟

2- الآخريّة أو لعبة المرايا المتناظرة: لا يُمكن أن نتصوّر شرقاً دون غرب، ولا غرباً دون شرق؛ فهما متلازمان ومتناظران، وكل طرف ضروري لوجود الطرف الآخر. وإذا كان الشرق قد تمّت صياغته منذ قرون، فإنّ الغرب نفسه جرت صياغته عبر هذه القرون، قبل أن يصير على ما هو عليه اليوم بوصفه حارس العالم، وشرطيّه، وعقله المفكر، ويده السخية... إلخ غير أنّ بعض المفكرين، ولاسيما العرب منهم، تساءلوا ويتساءلون: عن أيّ غرب سنتحدث؟ وهل هناك غرب واحد جرى الاتفاق حول بنيته وصورته، أم هناك أكثر من صورة للغرب، قد تصل أحيانا إلى درجة التناقض والتنافر؟

1-1- في مفهوم الغيرية: وبالعودة إلى تاريخ العلاقة بين الشرق والغرب، وجدنا بأنه يمكن التأريخ لها انطلاقاً من تطور مفهوم "الغيرية" و"الآخريّة"؛ فالشرق كان هو

الآخر بالنسبة للغرب، وقد سعى هذا الأخير، لأن يجعل الشرق صورته المناقضة، ويكون بمثابة الغريبة المنفرة، والمهددة التي تشكّل خطراً محدقاً. فالآخر هو المُختلف، هو البعيد، وهو الغامض، ولكنه في الآن نفسه، جزء لا يتجزأ من تكوين الذات، تلتجئ إليه هذه الأخيرة لفرض تمايزها المُطلق.

لقد أصبحت "الغريبة"، بتعبير "شرف الدين ماجدولين" هي ((رديفة لمفهوم "الصورة" على اعتبار أننا ندرك الآخرين عبر تشكلات صورية، تخضع لإجراءات التحول والانتقال والمفارقة للوقائع الموضوعية))²

وما يُميّز الصورة التي تُشكّلها الذات عن الآخر، هي من طبيعة متحولة ومفارقة للواقع، تعتمد على آليات مثل التشويه والتحويل والاختزال والتميط... إلخ وكلها تكون في خدمة الذات لأجل تضمين حكم قيمي عن الآخر.

وسواء كان الآخر هو الشرق أو الغرب، فقد تشكلت أنظمة التمثيل المتبادل على أولوية وجود الآخر لوعي الذات بمكانتها، وثانياً العمل على بناء صورة مفارقة عن الآخر تزيح صورته الواقعية أو الحقيقية أو التاريخية.

1- 2) - التميّط الحضاري: إنّ الصورة التي سادت عن الإسلام، إبان العصور الوسطى وصولاً إلى عصر النهضة فهي أنه ((دين شيطاني رجيم سماته النفاق والتجذيف والغموض (...)) فالمهم بالنسبة للمسيحيين، هو أنّ محمّداً نبي كذاب، زارع شقاق وداعية تفرقة، شهواني، منافق، وعميل الشيطان))³

وليس هذا فحسب، فقد أصبح زحف الجيوش الإسلامية، والتي نجحت في دكّ قلاع أوروبا، ظلّ يخيم على أوروبا، ليغذي مخيالها الأدبي الذي دأب على التحذير من هذا الخطر القادم من الشرق، وامتد هذا الخوف إلى ما بعد عصر النهضة.

1- 3)- شيطنة الإسلام: أما في العصور الحديثة، فلم تخب جذوة الخوف من قلوب الغربيين؛ واحتلت صورة "إيران" مركز الاهتمام الدولي، بعد نجاح الثورة الإيرانية والانتقال على الحكم الملكي الذي كان مواليا للغرب، فعاد من جديد الحديث عن الخطر الإسلامي، وتم إحياء تلك الصورة المربعة عن الإسلام.

وفي هذا السياق، فإن رد فعل الغرب مما جرى في إيران مثلاً، لم يأت من العدم، بل هو نابع من موقف قديم حول الإسلام والعرب والشرق عموماً، وهي صورة لم تتأثر بتغير الظروف التاريخية والسياسية والاجتماعية، بل تغيرت فقط أشكال التمثيل دون أن تمس بنية النظام التمثيلي من أساسه؛ فالمسلم اليوم أصبح يُصور كاريكاتورياً أمام خيمته، يحرس آبار النفط التي هي المورد الأساسي للإقتصاد العالمي، أو في صورة إرهابي، أو مجموعة من الصراصير التي تخرج من بالوعة للصرف الصحي رُسِمت فوق خريطة إيران، على النحو الذي بيّنه المفكر الإيراني "حميد دباشي" في كتابه المهم "مابعد الاستشراق، المعرفة والقوة في زمن الإرهاب"؛ إذ قدّم ملاحظة مهمة، في تحليله لصورة الصراصير، وهي أنّ الرسم الكاريكاتوري الذي نشرته صحيفة **Columbus** **post-Dispatch** لم يكن رسمة ((متقطعة ولا عرضية في نطاق التركيبة العنصرية التي تمثلها، بل هي متكاملة في الواقع مع طيف معياري أوسع كثيراً، عادة ما يبقى صامتاً ويتراكم بصورة غير ملحوظة)).⁴

وأمام هذه الصورة المُكبّرة عن الإسلام الظلامي، فهي ضئيلة المساحة المُتاحة للخطاب المتعاطف مع "الإسلام"، بل أنّ أي خطاب يحاول تصحيح صورة الإسلام في عيون الغرب، سيتعرّض للتشكيك في موضوعيته ونزاهته، حيث نتذكّر اللغظ الإعلامي الذي رافق إصدار فيلم "إمبراطورية الجنة" للمخرج العالمي "ريدلي سكوت"، حيث قدم في هذا الفيلم شخصية "صلاح الدين الأيوبي" في صورة أكثر إنسانية، وأكثر تسامحاً وتقبلاً للآخر، عكس المسيحيين الذين صورهم متعطشين للدماء وللسلطة

وللمال. وقد تألب الإعلام الغربي ضد الفيلم ومخرجه، وتعالّت الأصوات التي نادّت آنذاك بمنع عرض هذا الفيلم، ومعاقبة المخرج، لأنّه شوّه الشخصية المسيحية، وتجراً على السجّل الاستشراقي.

في الوقت الذي يشيد الغرب صورة ثابتة ومتعالية ومفارقة للواقع عن الشرق والإسلام، فهو في الآن نفسه يعيد صياغة ذاته، ولو أنّ سؤالاً في حجم: ما هو الغرب؟ هو سؤال من الصعب الخلوّص إلى إجابة دقيقة، لأنّ الغرب نفسه هو مفهوم ملتبس. هناك من يرى أنّه لا بد أن نتجنب الخلط، مثلاً بين أوروبا وأمريكا، من جهة علاقتهم بالشرق والإسلام، لأننا كثيراً ما نتعامل مع الغرب بوصفه أوروبا وأمريكا في الآن نفسه. مما يعني أنّ الغرب هو غرب متعدد، ولو أنّه في ظل الهيمنة الأمريكية الحاصلة اليوم، وفي ظل عولمة النموذج الأمريكي، أصبح هذا النموذج هو الذي يمثل الغرب اليوم؛ فأمريكا هي مركز القرار السياسي في العالم، وهي المتحكمة في الاقتصاد العالمي، وهي أكبر قوة عسكرية ونووية التي تحولت بعد الحرب العالمية الثانية، وبعد سقوط جدار برلين إلى شرطي العالم، ومركز القيم، والقوة التي تمتلك جميع الصلاحيات لتصنيف الشعوب والثقافات إلى محور الخير وإلى محور الشر، والقوة التي تملك الحق في غزو أي منطقة في العالم.

وبالعودة إلى ثنائية الشرق والغرب، هناك فرق شاسع بين الوعي الأمريكي والوعي الأوروبي للإسلام؛ وهو ما تشي به العلاقات التاريخية بين أوروبا والإسلام، وهي علاقة ضاربة في القدم، تعود إلى بداية ظهور الإسلام نفسه، تفاوتت بين الحرب والسلم، وبين العداء والتعايش. أمّا أمريكا، فعلاقتها بالإسلام فهي وليدة الأزمات المعاصرة، وقليلون هم الأمريكيان من أقام علاقة فعلية مع مسلم حقيقي، بل ((نعتبر إذن أنّ الإسلام قد دخل إلى وعي معظم الأمريكيين، بما في ذلك المثقفون الأكاديميون والمثقفون عامة الذين يعرفون القدر الكثير عن أوروبا وأمريكا اللاتينية، بسبب الربط بينه وبين القضايا

المهمة إعلامياً، كالنفط، أو إيران، وأفغانستان، أو الإرهاب -أساساً-، إن لم يكن قطعاً⁵)).

كما أنّ الإسلام، ومقارنة بالجامعات الأوروبية، لم ينل قسطاً من الاهتمام في الجامعات الأمريكية، بما في ذلك موقف النخب الأكاديمية منه، الذي كان يميل إلى الرفض.

(2- الغربُ موضوعاً للتمثيل: يرى المفكر اللبناني الكبير "جورج قرم" أنّ "الغرب" مولّد لمشاعر الغيرية الجذرية؛ فضلاً عن دلالاته الجغرافية البسيطة، فهو متعدّد المعاني والدلالات، ومشحون، فوق ذلك، بطاقة دلالية بلغت حدّ الوسواسية والعصابية، في توظيف المفهوم في مختلف الخطابات.

إنّ مكنم الصعوبة في التعاطي مع مفهوم الغرب، أنّ الغرب يخفي في بنيته العميقة مفارقة قوية تتعلق بهيكليته وآلية عمله، ((ذلك أنّ التاريخ البالغ التنوع والتباين للشعوب الأوروبية كما لثقافتهم وأفكارهم الفلسفية الأكثر تناقضاً، يُنظر إليه على أنه تاريخ موحد، على الرغم من كل التناقضات، في رؤية تاريخية وفلسفية لمسار متواصل ومتماسك لهذه الهوية العابرة للقوميات المسماة "غرباً")⁶)).

(1-2- الغرب مفهوم حديث: فالغرب مفهوم حديث، ترسّخ منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وسرى في الوجدان الأوروبي مسرى الهوية الكونية، ثم جاءت العولمة التي ليست أكثر من مشروع "غربة" العالم، وإخضاع المجتمعات للنموذج الغربي. إذ أصبح نقد الغرب بمثابة المساس بعقيدة مقدسة، بل حتى الغربيين أنفسهم، الذين انتقدوا الغرب، لم يتجرؤوا على التشكيك في وجوده.

لقد تحول هذا الغرب، حسب جورج قرم، إلى "غرب أسطوري"، نصّب نفسه الوريث الأوحد لتراث الإنسانية، وحامل أعباء الحضارة الإنسانية، ومرجعها الأكبر،

ومصدر القيم التي على العالم أن يحترمها، لأتتها قيم إنسانية وكونية لا تتعارض مع مبادئ حقوق الإنسان. على الرغم من أن الأمر ليس كذلك دائماً.

أما المفكر "نسيب الحسيني"، فطرح سؤالاً على قدر كبير من الأهمية: أي صورة للغرب نريد التقاطها؟ إنه بسؤاله هذا يحيلنا إلى سؤال ضمني: هل بإمكان الشرقي أن يُعرّف الغربَ والغربي؟ علماً بأنّ الشرق، لم يتخلص بعد من عوامل استلابه، بل لم يتحرر من الصورة المتخيلة عنه، التي شكلها الاستشراق منذ قرون؟

إنّ شرط الحوار مع الآخر الغربي، لا يكون ناجعاً إلا بتخليص لغة الخطاب من المصطلحات التي تعكس هيمنته، أليس الشرق نفسه هو أحد هذه المصطلحات؟ فالانخراط في حوار جاد معه، يبدأ من الإدراك بمدى تغلغله في أعماق الذات الشرقية، وفي لغتها وطريقة تفكيرها.

والنتيجة أنّ ((الإحاطة برؤية الغرب في الوجدان السياسي العربي هي بمثابة محاولة إلقاء نظرة نسعى من خلالها إلى معرفة بذاتنا معرفة أفضل)).⁷

يقف هذا الموقف، ضد الموقف الذي ينادي بإلغاء الآخر، وبالانكفاء على الذات فقط؛ إذ ينادي البعض إلى عدم دراسة الغرب، والسبب أنّ ذلك قد يؤدي إلى الحلول فيه، بالنظر إلى قوة الجذب التي يتمتع بها، ويعتقد أصحاب هذا الموقف، أنّ أفضل طريقة للتخلص من تأثيرات الآخر هي بتربية الأجيال على كراهية الآخر، ونبذه، واحتقاره، وشيطنته. يقول "نادر كاظم": ((فإنّ التعبير عن هذه الكراهية يتطلب وجود الآخر بالضرورة، ولو أنّ إنساناً وحيداً في جزيرة نائية لا يرى فيها بشراً لما شعر بالحاجة إلى التعبير عن الكراهية)).⁸

(2-2) - الغرب المتعدد: لقد تعددت صورة الغرب في المخيال العربي والإسلامي؛ فهو

أولاً: غرب أسطوري، يسكن الذاكرة الجمعية؛ فهناك أحداث قد وقعت منذ قرون، مازالت تؤثر على الرؤية المعاصرة إلى الآخر، مثل فتح الأندلس، والحروب الصليبية التي ساهمت بشكل كبير في تشكل التمثيلات التي يتغذى منها الوجدان السياسي العربي اليوم.

افتتح الأندلس، على سبيل المثال، شكلت نقطة تحول تاريخي عميقة الأثر، تذكر بلحظة التوغل العربي الإسلامي في عمق أوروبا. كما أنّ الحملات الصليبية مازالت إلى اليوم تخيم بأشباحها على الوعي العربي المعاصر، ويذكر الحسيني رمزية اسم صلاح الدين الأيوبي الذي كُتب على الطائرة التي أقلت الوفد العراقي إلى آخر قمة عربية في القاهرة في ذروة حرب الخليج.

لقد أنتج العرب والمسلمون نظامهم التمثيلي عن الآخر الغربي، والذي لم يخل هو الآخر من القولية والتتميط، مثل إبراز بربرية "الإفرنج"، وقلة نظافتهم، وتعصبهم، وجهلهم.⁹

ثانياً: الغرب التاريخي، وقد تساءل الحسيني: متى وُلدت فكرة الغرب؟ فيجيب أنه من التبسيط التسرع في ربط حملة نابليون على مصر بالولادة التاريخية لهذا الغرب. ومع ذلك، أكد على أن الغرب التاريخي هو الغرب الحقيقي، أي "غرب التحديث".

ثالثاً: الغرب المثال، وهو الغرب الذي أوجد الحداثّة، وطوّر الحياة الإنسانية، وأقام العلوم، وابتكر الفنون؛ وهو أيضاً ذلك الغرب الذي يتمتع بالجاذبية، فتحول إلى نموذج للاحتذاء؛ وقد تأثر العرب النهضويون بهذا النموذج، بل دعوا إلى الأخذ به، والاعتراف من منابع حداثته، والأخذ بعلومه وبمناهجه في التعليم، وفي ترسيخ قيم الحداثة الغربية، وقد لعبت هذه النخب، من خلال مفكرين وأدباء، أمثال: رفاعة رافع الطهطاوي، أو طه حسين،... إلخ في نقل صورة الغرب إلى البيئة العربية بوصفه مثالا للاحتذاء، وقد ذكر الحسيني بعض ما قاله هؤلاء في تمجيد هذا الغرب، فهاهو الطهطاوي يقول: ((البلاد

الإفريقية قد بلغت أقصى مراتب البراعة في العلوم الرياضية، والطبيعية، وما وراء الطبيعة أصولها وفروعها، ولبعضهم نوع مشاركة في بعض العلوم العربية، وتوصلوا إلى فهم دقائقها وأسرارها، كما سنذكره، غير أنهم لم يعتدوا إلى الطريق المستقيم، ولم يسلكوا سبيل النجاة، ولم يرشدوا إلى الدين الحق، ومنهج الصدق¹⁰)).

أما دور طه حسين، فكان عميقاً ومؤثراً على نحو بليغ في تشكيل نظرة العرب الحديثين للآخر، وفي دوره في الدعوة إلى تجديد مناهج التعليم، وتجديد أدوات القراءة، بما توصل إليه الحقل المعرفي الغربي من مناهج ونظريات، وكان تأثيره بالأفكار الاستشراقية واضحة، تجلت في بعض مؤلفاته، لعل أشهرها كتابه "في الشعر الجاهلي"، وفي هذا الكتاب دعا إلى إعادة النظر الجذري في الشعر العربي القديم، مستأنساً بالمناهج التاريخية الحديثة.

رابعاً: الغرب المرفوض وهو الغرب المهيمن والمستعمر والمادي واللاإنساني، الذي يقف إلى جانب إسرائيل، الذي لا يهتم إلا بمصالحه الاقتصادية على حساب شقاء الشعوب الأخرى... إلخ فهذا الغرب قد تمت شيطنته بالنظر إلى حضوره المرتبط بالحرب والغزو. وقد ترسخت هذه الصورة أكثر في العقود الأخيرة، مع تورط أمريكا - بوصفها الممثلة للقيم الغربية - في حروب في أفغانستان ثم في العراق وتورطها في هندسة الحروب الأهلية والنزاعات الداخلية وتدخلها في اختيار الأنظمة السياسية في البلدان العربية وتواطئها مع المستبدين على حساب الشعوب طالما أن ذلك يحدث بمقابل. وليست أحداث 11 / 9 إلا واقعة عبّرت عن كراهية الشعوب العربية والإسلامية لأمريكا، وإعلان بعض الجماعات المتشددة الجهاد ضد الشيطان الأكبر.

فهذه الصورة تشكلت داخل مناخ من الكراهية، جعلت الغرب واحداً، وقضت على جميع إمكانيات الحوار، أو التعايش.

نخلص هنا إلى أنَّ هذا النموذج للغرب المرفوض يقابله أيضاً الشرق الهمجي الذي عملت المؤسسات الغربية على ترسيخه في مختلف الخطابات؛ فقد انتصر الطرفان إلى فكرة "الصراع الحضاري" بدل "الحوار"، ولو أنَّ الصيغة المتداولة اليوم عن حوار الغرب والشرق يقوم بالأساس على مبدأ خاطئ وهو: أنَّ طرفاً على حق، في حين أنَّ الطرف الثاني على خطأ، لتنشأ خطابات تتصارع وفق مبدأ إساءة الفهم والتأويل والتفسير، في حين اعتبر "غدامير" التأويل هو ((إمكانية أن يكون الآخر على حق)).¹¹

3- صور الغيرية في الإسلام: يطرح محمد نورالدين أفاية في كتابه "صور الغيرية تجليات الآخر في الفكر العربي والإسلامي" موضوعاً يتعلق بمرجعيات النظر الإسلامي للآخر، متسائلاً: من هو الآخر من منظور هذه المرجعيات؟ ويقصد بها القرآن والحديث الشريف.

إنَّ الآخر، في نظر المرجعية الإسلامية، هو ذلك المُختلف دينياً وثقافياً، والذي تعددت صورته بين الشريك المُسلم وبين العدو الغازي. أي أنها صورة تتحرك بين الإغراء والتهديد.

ظهرت صورة اليهودي والنصراني ضمن التمثيلات القرآنية للآخر؛ فاليهودي على سبيل المثال، قد حضرت صورته في النص القرآني في سياق تميز بالتوتر، وعدم الثقة، بسبب الصراع الوجودي بين النفوذ اليهودي في المدينة وبين الدين الجديد الذي أراد أن يأخذ السلطة منهم لصالح المكون العربي، آنذاك.

لقد ظهر الإسلام ليرسي رؤية محددة للآخر، بحيث ((لم يكن من الممكن التبشير بالمشروع الجديد دون الاهتمام الفائق بصور الآخر، بمواقعه، برود أفعاله، وبوظائفه في التشكيلة الاجتماعية والتاريخية والعقائدية التي كشفها الإسلام)).¹²

غير أنّ الأمر سرعان ما تحوّل، بعد أن اتسعت رقعة الدين الجديد، فتوسع في الأمصار البعيدة، التي تنتمي إلى ثقافات ولغات مختلفة ومتباينة، ثم أنّه بعد انقضاء فترة الوحي، والدخول في مرحلة الاجتهاد البشري، أصبح الواقع أكثر تعقيدا، وأصبح الدين الجديد منفتحا على مختلف القوميات والثقافات، دون أن يدعو إلى محو تلك الاختلافات الثقافية، بشرط العمل وفق تعاليم الدين الجديد، وهو الأمر الذي ساهم بطريقة أو بأخرى في تصور مغاير للآخر.

يقول آفاية: ((إنّ خروج الإسلام من فضاء الجزيرة إلى التفاعل مع الآخرين في سوريا والعراق وإيران وببزنطة وإفريقيا... إلخ جعله ينسج علاقات ثقافية على الرغم من الشعور الذاتي بالقوة والتفوق والتمايّز)).¹³

إنّ نلاحظ أنّ صورة الآخر، تشكلت انطلاقا من إحساس المسلم الأول بالتفوق والقوة والتعالي، بسبب ما كان يمنحه له الدين الجديد من اعتقاد بأنه خير الخلق قاطبة، وبذلك كان ينظر إلى غير المسلمين بنظرة دونية بصفتهم لا يرقون إلى درجة الإنسانية. وبحكم هذه التحولات، ودخول مكونات ثقافية أجنبية في المجتمع الإسلامي الجديد، انتقل الاختلاف إلى حقل التأويل داخل المكون الإسلامي ذاته، فأصبح المختلف هو ذاك الذي يخالفك في تفسير النص الديني.

4 - خاتمة: سعيّا في هذه الورقة البحثية، على الرغم من أنّ موضوعها الإشكالي المتعلق بعلاقة الشرق بالغرب هو أكبر مما يمكن لمقال أن يحيط به، أن نرصد آليات صناعة الذات لصورة الآخر وتمثلها له، انطلاقا من العلاقة الثنائية بين الشرق والغرب، والتي مازالت إلى اليوم قائمة، في ظل النظام العولمي الذي يسعى إلى فرض نموذج غربي يكون مهيمنا على بقية الثقافات والهويات، لاسيما الشرقية منها، وكذا في ظل الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي اليوم الذي أخذ منعطفا خطيرا منذ 7 أكتوبر 2023،

وهو صراع له أبعاده التاريخية والحضارية الذي يقوم بالأساس على استعادة متكررة لإرث العداوة بين الطرفين.

لقد حاولنا ان نخلص إلى أنّ علاقة الشرق بالغرب هي علاقة مرآوية، بحيث أنّ كل طرف اختلق الطرف الآخر، وحاول أن يرسم حدوده وملامحه وهويته وفق آلية اسقاط تجعل الذات والآخر في حالة تعارض أبدي.

فإذا كان الغرب قد جرد الشرق من بعده التاريخي ليتحول إلى شرق خيالي ونمطي وجوهرائي، فإنّ الشرق نفسه، لاسيما مع التجربة الإسلامية، قد مارس هو الآخر نفس الآلية في تنميط الآخر ونمذجته، ووضعه داخل قالب مفارق للتاريخ.

من هنا، فإنّ ما قامت به هذه الآليات هو إلغاء التعدد والاختلاف وعدم الاعتراف بالغيرية، والدفع بالعلاقة بين الشرق والغرب نحو أفق الصراع، والاقصاء المتبادل، وشيطنة الآخر.

فالغرب إلى اليوم، مازال يعتبر المسلم إرهابيا، وقد ساهمت موجة الهجرة العنصرية أو السرية إلى أوروبا، بفعل الحروب والأزمات الداخلية في البلدان العربية إلى صعود خطاب اليمين المتطرف الذي ما فتئ يحذر من هذه الظاهرة، لأنها تساهم في أسلمة أوروبا، وبذلك فتح المنافذ للحركات الأصولية لتحقيق مشروعها الجهادي في أراضي الكفار، وما زاد قوة هذا الخطاب هو العمليات الإرهابية التي وقعت في مدن كثيرة في أوروبا، والتي تم استغلالها سياسيا وإعلاميا للترويج لخطاب الاسلاموفوبيا بوصفه تجلّيا معاصرا لفكرة الصراع الإسلامي - الصليبي.

لكن في المقابل، وبعيدا عن مناخ الصراع والتوتر، فهناك مساحة للتأمل يجب أن يتم استغلالها للإجابة عن التساؤل التالي: هل هناك شرق واحد؟ وهل هناك غرب

واحد؟ هل الحركات الإسلامية الأصولية تمثل كل المسلمين؟ وهل اليمين المتطرف الغربي يمثل كل الغرب؟

هي أسئلة لا بد من وضعها ضمن أولويات النقاش العمومي اليوم، ولا بد من الاستعانة بفقهاء التأويل في نسخته الإنسانية، التي تقول أنّ التأويل هو أن يكون الآخر على حق. وهذا بقدر ما يبدو خطابا طوباويا، لكنه غير مستحيل.

5- قائمة المراجع:

1. محمد أركون، الإسلام، أوروبا، الغرب. رهانات المعنى وإرادة الهيمنة، تر: هاشم صالح، دار الساقى بيروت، ط02، (2001).
2. شرف الدين ماجدولين، الفتنة والآخر. أنساق الغيرية في السرد العربي، الدار العربية للعلوم ناشرون بيروت، دار الأمان الرباط، منشورات الاختلاف الجزائر، ط01، (2012).
3. إدوارد سعيد، الإسلام والغرب، تر: سعيد البرغوثي، دار كنعان للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية، ط01، (2014).
4. حميد دباشي، ما بعد الاستشراق المعرفة والسلطة في زمن الإرهاب، تر: باسل عبد الله وطفه، منشورات المتوسط إيطاليا، ط01، (2015).
5. جورج قرم، تاريخ أوروبا وبناء أسطورة الغرب، تر: رلى ذبيان، دار الفارابي بيروت، ط01، (2012).
6. نسيب الحسيني، الغرب المُتخيل رؤية الآخر في الوجدان السياسي العربي، تر: غازي برو، المشروع القومي للترجمة، ط01، (2005).
7. نادر كاظم، لماذا نكره؟ أو كراهيات منفلة مرة أخرى، دار سؤال، دط، دت.

8. محمد شوقي الزين، الذات والآخر تأملات معاصرة في العقل والسياسة والواقع، منشورات ضفاف بيروت، دار الأمان الرباط، منشورات الاختلاف الجزائر، ط01، (2012).

9. محمد نورالدين أفاية، صور الغيرية تجليات الآخر في الفكر العربي الإسلامي، المركز الثقافي للكتاب الدار البيضاء، ط01، (2018).

الهوامش والإحالات:

¹ - محمد أركون، الإسلام، أوروبا، الغرب. رهانات المعنى وإرادة الهيمنة، تر: هاشم صالح، دار الساقى بيروت، ط02، 2001، ص05.

² - شرف الدين ماجدولين، الفتنة والآخر. أنساق الغيرية في السرد العربي، الدار العربية للعلوم ناشرون بيروت، دار الأمان الرباط، منشورات الاختلاف الجزائر، ط01، 2012، ص23.

³ - إدوارد سعيد، الإسلام والغرب، تر: سعيد البرغوثي، دار كنعان للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية، ط01، 2014، ص22.

⁴ - حميد دباشي، ما بعد الاستشراق المعرفة والسلطة في زمن الإرهاب، تر: باسل عبد الله وطفه، منشورات المتوسط إيطاليا، ط01، 2015، ص15.

⁵ - إدوارد سعيد، الإسلام والغرب، مصدر سابق، ص34.

⁶ - جورج قرم، تاريخ أوروبا وبناء أسطورة الغرب، تر: رلى ذبيان، دار الفارابي بيروت، ط01، 2012، ص39.

⁷ - نسيب الحسيني، الغرب المُتخيل رؤية الآخر في الوجدان السياسي العربي، تر: غازي برو، المشروع القومي للترجمة، ط01، 2005، ص31.

⁸ - نادر كاظم، لماذا نكره؟ أو كراهيات منفلة مرة أخرى، دار سؤال، دط، دت، ص73.

⁹ - يُنظر: نسيب الحسيني، الغرب المتخيل، مصدر سابق، ص67.

¹⁰ - نسيب الحسيني، الغرب المتخيل، مصدر سابق، ص144.

¹¹ - محمد شوقي الزين، الذات والآخر تأملات معاصرة في العقل والسياسة والواقع، منشورات ضفاف بيروت، دار الأمان الرباط، منشورات الاختلاف الجزائر، ط01، 2012، ص61.

¹² - محمد نورالدين أفاية، صور الغيرية تجليات الآخر في الفكر العربي الإسلامي، المركز الثقافي للكتاب الدار البيضاء، ط01، 2018، ص93.

¹³ - المصدر نفسه، ص100.